



تعتبر روسيا من أشهر بلاد العالم في ألعاب السيرك، إن لم تكن أشهرها على الإطلاق، نظراً لما تتميز به عروضها التي تطوف الشرق والغرب، من فقراتٍ ترفيهيةٍ منوعةٍ، ومهرجين وسحراء وحيوانات ضاربة مدربة، وما إلى ذلك من مشاهد بصرية تخطف أباب الصغار، وتنزع إعجاب الكبار، وغير ذلك من ألعاب قوامها السحر والإبهار، والإثارة والتشويق، بما في ذلك المشي بخفةٍ ورشاقةٍ على الحبال.

وأحسب أن مسمى "المناطق منخفضة التوتر"، تلك الصيغة التي أملتها روسيا في اجتماع أستانة الرابع، ووُقعت عليها كل من تركيا وإيران، وبمعزل عن ممثلي نظام الأسد ووفد الفصائل المعارضة، فيه شيءٌ كثيرٌ من أوجه التشابه مع استعراضات ألعاب السيرك الروسية التقليدية، وذلك لما تنتطوي عليه هذه اللعبة السياسية المطورة من خصائص وسمات، مستلهمة من فنون السيرك، لا سيما التهريج والمشي على الحبال، ناهيك عن البهلوانيات المثيرة للضحك في بعض الأحيان. إذ بعد نحو ثمانية عشر شهراً من التكتيكات الوحشية الروسية في الأجواء السورية المستباحة، ووصول هذا التدخل الذي أخل بالتوازنات على الأرض، إلى نقطة استعصاء سياسية حادة، تنذر بفشل قد لا يطول أوان حصاده، عمدت موسكو إلى إعادة تقديم بضاعتها البائرة بخلافٍ جديدٍ، يحمل اسمًا آخر أكثر جاذبية، لعل هذه المناورة التكتيكية تنجح في حمل المستهلكين السذج على شراء المنتج المغلف بعبوةٍ جميلةٍ، تلفت أنظار المتسوقين للوهلة الأولى.

بكلام آخر، الرياح التي ظلت، طوال الوقت، تهب في صالح أشرعة السفينة الروسية المبحرة في أعلى المياه الدافئة، توقفت فجأة هكذا، بعد الغارة الكيميائية على بلدة خان شيخون، ثم عكست اتجاهها بشدة، إثر الغارة الصاروخية الأمريكية على

مطار الشعيرات الذي انطلقت منه الطائرات السورية المحملة بغاز السارين، الأمر الذي وجدت معه موسكو نفسها متورطةً داخل مجلس الأمن وخارجـه، في الدفاع عن نظام يواصل مقارفة استخدام السلاح المحرـم دولـياً، ولا يعبـأ كثيرـاً بـثـارة حـفيـظـة المجتمع الدولي.

على الرغم من محدودية ضربـة صوارـيخ التـومـاـهـوكـ البـالـسـيـتـيـةـ، وهي الضـربـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ الـأـوـلـىـ من نوعـهاـ ضدـ النـظـامـ السـوـرـيـ،ـ عنـ نـيـةـ عـلـىـ وـقـصـدـ مـسـبـقـ،ـ إـلـاـ أـنـ الدـوـيـ الـهـائـلـ لـتـلـكـ الصـوـارـيخـ الـمـجـنـحةـ سـمـعـ فـيـ مـوـسـكـوـ عـلـىـ نـحـوـ جـيـدـ جـداـ،ـ وـقـرـأـهـاـ الـجـنـرـالـاتـ الـرـوـسـ عـلـىـ أـنـهـاـ ضـربـةـ لـكـبـرـيـاءـ "ـالـقـوـاتـ الـجـوـيـةـ الـفـضـائـيـةـ"ـ الـرـوـسـيـةـ الـتـيـ أـبـلـتـ بـلـاءـ حـسـنـاـ ضـدـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ وـمـرـاـكـزـ الـدـفـاعـ الـمـدـنـيـ،ـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ الـأـهـدـافـ الـمـدـنـيـةـ،ـ فـيـ عـمـومـ الـمـنـاطـقـ السـوـرـيـةـ الـمـحـرـرـةـ مـنـ قـبـضـةـ الـأـسـدـ وـالـمـلـيـشـيـاتـ الـإـيـرـانـيـةـ.

وـمـنـ وـحـيـ أـلـعـابـ السـيـرـكـ الـكـلـاـسـيـكـيـةـ،ـ وـمـفـاهـيمـ الـقـائـمـةـ عـلـىـ خـفـةـ الـلـيـدـ الـمـبـهـرـةـ،ـ وـالـمـشـيـ عـلـىـ الـحـيـالـ بـرـاعـةـ،ـ نـاهـيـكـ عـنـ الـتـهـرـيـجـ،ـ وـمـاـ إـلـىـ ذـلـكـ مـنـ أـلـعـابـ وـاسـتـعـراـضـاتـ أـخـرـىـ شـهـيـرـةـ،ـ تـفـتـقـتـ الـذـهـنـيـةـ الـمـافـيـاـوـيـةـ الـقـابـعـةـ فـيـ الـكـرـمـلـيـنـ،ـ عـنـ حـيـلـةـ جـدـيـدـةـ،ـ قـوـامـهـ إـعـادـةـ تـقـدـيمـ الـبـضـاعـةـ الـتـيـ لـمـ يـُـقـبـلـ عـلـيـهـ سـوـىـ الـذـيـابـ،ـ بـحـلـةـ جـدـيـدـةـ قـشـيـبـةـ،ـ وـأـرـفـقـتـهـ بـحـمـلـةـ تـرـوـيـجـيـةـ وـاسـعـةـ،ـ لـعـلـ أـرـبـابـ الـقـوـةـ الـشـرـائـيـةـ الـكـبـيـرـةـ فـيـ وـاـشـنـطـنـ،ـ يـقـبـلـونـ عـلـىـ التـهـامـ هـذـاـ الـطـعـمـ،ـ كـسـمـكـةـ جـائـعـةـ.

لـإـقنـاعـ الـزـبـائـنـ الـمـحـتـمـلـيـنـ فـيـ الـعـاصـمـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ بـهـذـاـ الـعـرـضـ الـمـفـخـخـ،ـ شـدـ وـزـيـرـ الـخـارـجـيـةـ الـرـوـسـيـ،ـ سـيـرـغـيـ لـافـرـوفـ،ـ مـنـ عـهـدـ الـحـرـبـ الـبـارـدـ،ـ رـحـالـهـ إـلـىـ الـبـيـتـ الـأـبـيـضـ،ـ بـعـدـ غـيـابـ دـامـ نـحـوـ أـرـبـعـ سـنـوـاتـ مـتـوـاـصـلـةـ،ـ حـاـمـلـاـ فـيـ حـقـيـبـتـهـ مـلـفـ "ـالـمـنـاطـقـ مـنـخـفـضـةـ الـتـوـرـ"ـ،ـ فـبـدـاـ بـذـلـكـ كـرـجـلـ عـلـاقـاتـ عـامـةـ،ـ أـخـذـ عـلـىـ عـاـنـقـهـ تـسـوـيـقـ مـنـتـجـ لـمـ يـشـتـرـهـ سـوـىـ الـإـيـرـانـيـيـنـ،ـ فـيـمـاـ طـلـبـ الـمـسـتـهـلـكـوـنـ الـمـحـتـمـلـيـنـ فـيـ الـإـقـلـيـمـ،ـ وـمـنـهـ الـأـتـرـاـكـ خـصـوـصـاـ،ـ تـقـدـيمـ خـصـومـاتـ مـجـزـيـةـ،ـ لـعـلـ ذـلـكـ يـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ قـبـولـ الـعـرـضـ،ـ وـمـنـ ثـمـةـ الـانـخـراـطـ فـيـ الـلـعـبـةـ.

وـبـغـضـ النـظـرـ عـنـ الشـيـاطـيـنـ الـكـامـنـةـ فـيـ قـلـبـ الـتـفـاصـيـلـ غـيرـ الـمـكـتـوـبـةـ بـعـدـ،ـ وـشـدـةـ الـالـتـبـاسـاتـ الـمـحـيـطـةـ بـمـاهـيـةـ الـمـنـاطـقـ الـأـرـبـعـ الـمـقـرـرـةـ،ـ إـنـ جـوـهـرـ ماـ اـنـطـوـيـ عـلـيـهـ هـذـاـ الـعـرـضـ غـيرـ الـقـابـلـ لـلـتـطـبـيقـ،ـ حـتـىـ وـإـنـ توـفـرـ عـنـصـرـ حـسـنـ الـنـيـةـ،ـ يـتـرـكـ فـيـ نـقـطـتـيـنـ أـسـاسـيـتـيـنـ:ـ الـأـوـلـىـ اـنـتـزـاعـ إـقـرـارـ دـولـيـ باـعـتـارـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ مـرـجـعـيـةـ بـدـيـلـةـ،ـ أـوـ أـقـلـهـ مـوـازـيـةـ لـمـسـارـ جـنـيـفـ،ـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـمـكـنـ مـوـسـكـوـ مـنـ إـمـسـاكـ بـكـلـ خـيـوـطـ الـلـعـبـةـ بـمـوـافـقـةـ أـمـمـيـةـ،ـ وـالـثـانـيـةـ الـحـفـاظـ عـلـىـ نـظـامـ بـشـارـ الـأـسـدـ فـيـ الـسـلـطـةـ،ـ كـوـنـ الـمـسـارـ الـذـيـ اـسـتـحـدـثـتـهـ رـوـسـيـاـ فـيـ الـعـاصـمـةـ الـكـاـخـسـتـانـيـةـ لـاـ يـتـرـقـ إـلـىـ مـسـأـلـةـ الـحـكـمـ الـاـنـتـقـالـيـ الـمـنـصـوـصـ عـلـيـهـ فـيـ قـرـارـاتـ مـجـلـسـ الـأـمـنـ الـمـعـنـيـةـ،ـ الـجـارـيـ تـداـولـهـاـ فـيـ مـسـارـ جـنـيـفـ الـبـطـيـءـ وـالـمـتـعـثـرـ.

وـمـعـ أـنـ مـسـارـ أـسـتـانـةـ لـمـ يـجـابـهـ باـعـتـراـضـاتـ جـديـةـ مـنـ جـانـبـ الـدـوـلـ وـالـأـطـرـافـ الـمـخـاطـبـةـ بـهـ،ـ كـوـنـهـ يـسـعـيـ إـلـىـ الـحدـ مـنـ لـهـيـبـ الـكـارـثـةـ السـوـرـيـةـ،ـ وـذـلـكـ مـاـ لـاـ يـصـحـ الـاعـتـراـضـ عـلـيـهـ بـتـاتـاـ،ـ إـلـاـ أـنـ هـذـاـ الـمـسـارـ الـذـيـ "ـصـنـعـ فـيـ رـوـسـيـاـ"ـ لـمـ يـلـقـ الـتـرـحـيبـ،ـ الـمـأـمـولـ بـهـ مـنـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ،ـ وـهـيـ الـغـائـبـ الـحـاـضـرـ عـلـىـ مـجـرـيـاتـ الـمـأـسـةـ السـوـرـيـةـ حـتـىـ الـأـمـسـ الـقـرـيبـ،ـ حـتـىـ لـاـ نـقـولـ اـعـتـراـضـهـاـ مـنـ حـيـثـ الـمـبـدـأـ عـلـىـ تـأـهـيلـ إـيـرـانـ وـإـعـادـةـ اـعـتـمـادـهـاـ طـرـفـاـ إـقـلـيـمـيـاـ مـشـارـكـاـ فـيـ صـنـعـ الـحـرـبـ وـالـسـلـامـ،ـ وـهـذـهـ نـقـطـةـ ضـعـفـ تـكـوـينـيـةـ فـيـ الـعـرـضـ الـرـوـسـيـ،ـ قـدـ تـشـكـلـ،ـ فـيـ مـبـدـئـهـاـ وـخـبـرـهـاـ،ـ ضـربـةـ مـمـيـتـةـ لـكـلـ هـذـهـ الـبـهـلـوـانـيـاتـ الـرـوـسـيـةـ الـمـكـشـوـفـةـ.

إـزـاءـ ذـلـكـ كـلـهـ،ـ مـنـ الـمـرـجـحـ،ـ بـصـورـةـ قـوـيـةـ،ـ أـنـ تـتـحـولـ لـعـبـةـ أـسـتـانـةـ الـمـغـشـوـشـةـ،ـ إـنـ لـمـ نـقـلـ الـمـلـفـقـةـ مـنـ أـلـفـهـاـ إـلـىـ يـائـهـاـ،ـ إـلـىـ مـأـزـقـ رـوـسـيـ مـسـتـحـكـمـ،ـ إـذـاـ كـفـتـ فـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ السـوـرـيـةـ،ـ أـوـلـاـ،ـ عـنـ الـإـنـسـيـاـقـ فـيـ هـذـهـ الـلـعـبـةـ الـمـاجـنـةـ،ـ وـأـوـقـفـتـ اـنـخـراـطـهـاـ فـيـ هـذـاـ الـمـسـارـ مـسـدـودـ الـنـهـاـيـةـ،ـ إـذـاـ نـأـتـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ،ـ ثـانـيـاـ،ـ بـنـفـسـهـاـ عـنـ اـبـلـاعـ طـعـمـ الـسـتـارـةـ الـرـوـسـيـةـ الـمـسـمـوـمـ،ـ وـمـضـتـ نـحـوـ خـيـارـاتـهـاـ الـبـدـيـلـةـ،ـ وـنـعـنـ بـذـلـكـ خـيـارـ الـمـنـاطـقـ الـآـمـنـةـ،ـ مـعـاـلـاـ مـوـضـوـعـيـاـ أـكـثـرـ رـاجـحـةـ مـنـ مـنـطـقـ "ـالـمـنـاطـقـ قـلـيلـةـ الـتـوـرـ"ـ.

سبق لكاتب هذه السطور أن توقع، بعد الجولة الثانية من مفاوضات محطة أستانة، ومن على هذا المنبر، باحتمالية تحول مسار هذه المحطة إلى "كعب آخيل" فلاديمير بوتين، ولسياسات الانكشارية في سوريا، وإن هذا التحول قد يحدث في أي لحظة، بعد أن انتهى عهد الرخاوة الأميركية، وعادت قرون الاستشعار شديدة الحساسية تعمل لدى "المؤسسة" في واشنطن، تجاه طموحات موسكو المبالغ بها، الساعية إلى وراثة الأمجاد السوفياتية، بما في ذلك استرداد مكانة الدولة العظمى قبلة الدولة الأعظم.

العربي الجديد

المصادر: